الشروق (العدد ٢٩) ٢٢ ـ ٢٨/١٠/١٩٩٢

هندسة الشرق الأوسط جارية من دون مهندسين عرب

ماذا بعد موت عروبة الخمسينات؟

غسان سلامة☆

■ عندما تفكر النخبة الأميركية بهندسة الشرق الأوسط، تسأل برنارد لويس أن يمدها بافكاره النيرة. هذا ما فعلته مجلة «فورين افيرز»، وهي رمز النخبة المالية ـ السياسية الحاكمة في أميركا، متجاهلة ان لويس ليس محايدا تماما، ولا هو أميركيا تماما: فهو استاذ جامعي يهودي لم يخف يوما اعجابه «باسرائيل» ولا تأييده لها، وهو كتب مرارا، لاسيما السنة الفائتة في مجلة «اتلانتيك» الواسعة الانتشار، عن اقتناعه باستحالة توأمة الاسلام والديموقراطية، لعلّة في الاسلام نفسه، مما يصعب على أي عقلاني قبوله.

وأثار مقال «فورين افيرز» موجات من الامتعاض في صفوف القراء العرب، وكتب عنه هنا وهناك في الصحافة العربية. ولكن الامتعاض لم يخل من الخفر. وكان الأمر الواضح هو الاعتراض على ما جاء في المقال، بينما النفوس في غير مكان من الرقعة العربية تشترك مع لويس في بعض خلاصاته ولكنها مازالت تتحفظ عن امكان البوح بهذا الاشتراك. فما هي عناصر «الهندسة» الجديدة؟ وما هو الموقف الممكن منها؟

أول هذه العناصر جزم لويس بفشل القومية العربية وربما بنهايتها. وهو يضيف ان هذه الفكرة قد تبقى لها آثار هنا أو هناك ولكنها مندثرة، وقد تعود في المستقبل ولكن ذلك احتمال ضئيل، وقد تبقى مفرداتها ولكن تأثيرها الراهن في السياسة العربية منعدم.

ليست الفكرة جديدة، فقد كتب خبر نعي القومية العربية كثيرون من انور السادات الى فؤاد عجمي مرورا بمعلقي صحافة «الجماهيرية الكبرى» في ليبيا.

وانضم مؤخرا الى مبلغي خبر الوفاة وزير الخارجية الفرنسي رولان دوما، ونائب الوزير الأميركي جيرجيان.

الفكرة اصبحت شائعة، ولا ينفع للرد عليها القول انها جزء من تآمر على العرب.

والحق يقال ان القومية العربية بمعناها الخمسيناتي هي الآن ميتة: سياسات وايديولوجيات، وأهم من هذه وتلك: مشاعر لكن الأوان قد أن لتجاوز اخبار الوفاة ولنفيها الصارم، وللانتقال الى حيز آخر.. حيز التساؤل عن مغزى هذه الوفاة السياسي. وهو مغزى يتضح يوما بعد يوم: اعتبار ان العروبة مجرد لغة، ولا اسقاط سياسيا لها وبالتالي النظر الى كل دولة عربية على حدة، بذاتها ولذاتها، ومقارنتها بالدول الأخرى والتوصل الى نتائج بديهية مثل انعدام اي دولة عربية لها قوة «اسرائيل» النووية، او تأثير تركيا السياسي، او طموحات ايران الاقليمية. فمصر دولة فقيرة اقتصاديا، ودول النفط لاقدرات لها خارج النفط، والعراق ضرب ضربة مميتة، وسورية تحت ضغط «اسرائيل»، ودول المغرب في حالة فوران طويلة الأمد. من هنا أهمية ترداد خبر الوفاة: ان لم يكن هناك من سياسة تجمع العرب معا فلم يعد هناك من دولة عربية مهمة بمفردها. والواقع ان هذا هو جوهر السياسة الغربية الحالية ازاء المنطقة.

العنصر الثاني: هو انتهاء دور النفط كسلاح في يد المنتجين... على الأقل في المرحلة الحالية. وفي بلداننا العربية من احتياطي النفط ما يكفي لعدم تأملنا بهذه الخلاصة. وهنا أيضا لا يكفي ان يقال بأن ثلثي الاحتياط العالمي في منطقتنا، وان العالم لم يجد بعد، ولن يجد في الأمد القريب، بديلا عن النفط (والغاز). ذلك أن الواقع واضح المعالم منذ زمن ومفاده أولا ان النفط لم يستعمل مباشرة لأغراض السياسة منذ حوالي عشرين سنة، وثانيا ان اسعاره قد هبطت بصورة مريعة منذ عشر سنوات وما استطاع منتجوه اكثر من تحديد جزئي للخسائر، وان الأوبك لم تعد فعالة كما في السابق اذ ان هناك دولا منتجة لم تعد تفكر بالدخول اليها ودولا اعضاء بدأت تغادرها. ثم ان أنظمة الكوتا في الانتاج لا تحترم تماما من قبل الدول المعنية مما يضعف مصداقيتها جميعا.

هنا أيضا يلاحظ لويس ما هو بديهي وما لا يقبل الشك. وانما المسألة، هنا أيضا، هي في المغزى السياسي: فان كان المنتجون لم يعودوا قادرين على استعمال النفط سلاحا لا في السياسة ولا في الاقتصاد، فهذا لا يعني ان النفط قد تحول الى سلعة عادية. فالنفط مازال سلعة استثنائية ولو لم يكن الأمر كذلك لم يأت جندي غربي واحد للاسهام في تحرير الكويت. واذا كان النفط استثنائيا فهذا لا يعني ان عجز المنتجين عن استعماله سلاحا يعني بالضرورة تلكؤ المستهلكين عن ذلك الأمر. بمعنى أوضح فان النفط مهم لدرجة ان الغرب الصناعي لا يدع منتجيه وشأنهم. فهو، في مرحلة أولى، قد منعهم من تحويله الى سلاح، وهو اليوم، في مرحلة ثانية، في طور تحويله الى سلاح بيده من خلال دوره الأمني المتعاظم في المناطق المنتجة للنفط. والخوف هو ان يكون النفط قد فقد في الثمانينات فعاليته السياسية بيد المنتجين، بينما يتحول في التسعينات سلاحا فعالا بيد المستهلكين بحكم قيامهم «بحراسته».

العنصر الثالث: تكنولوجي، اذ يرى لويس ان الفارق التكنولوجي قد تضاءل بين الغرب ومعظم مناطق العالم باستثناء منطقتنا حيث مازالت الهوة التكنولوجية فعالة تماما.

وهي تفسر الى حد بعيد استمرار التفوق العسكري الاسرائيلي (بل تزايده) بمواجهة العرب. ويقيني ان ليس من عربي عاقل يمكنه نفي هذا العنصر، واننا بدأنا نفهم تماما انه لا يرد على هذه المقولة بالتركيز على نبل عقيدتنا القومية او الدينية، ولا على اعدادنا البشرية المتكاثرة ولا بالعودة الى سوابق انتصرت فيها التقنية البدائية على الحداثة مثل فيتنام والصين. فنحن نعلم انها كانت انتصارات عابرة، وان الحديد وحده يفل الحديد، والتقنية المتقدمة لا تعالج الا بتقنية اكثر تقدما.

مرة أخرى: ماذا يعني هذا الكلام سياسيا؟ يعني توافقا غربيا، «أسرائيل» طرف فيه، على منع أنتقال التكنولوجيا المتطورة نحو البلدان العربية. ومع احترامي الشديد لفرح الخليجيين بتحرير الكويت من غزو العراق، فلابد من تذكيرهم ان هذا الأمر يبدو في الغرب ثانويا مع ما جرى تحقيقه، بهذه المناسبة، من تدمير مبرمج للقدرات التكنولوجية العراقية.

وينصب جزء غير يسير من العمل الدبلوماسي الاميركي اليوم على منع الصين والدول الأعضاء سابقا في الاتحاد السوفييتي من تزويد الدول العربية بأسلحة متطورة (يرافقه تساهل غريب فيما يخص ايران). لذلك لا يسع المرء الا ان يؤيد موقف عدد من المعارضين العراقيين، بينهم وزراء وسفراء سابقون عندما لاحظوا «المفارقة في الموقف الدولي بين الاندفاع في تطبيق نوع واحد من قرارات مجلس الأمن الخاصة بنزع السلاح العراقي وتدمير القدرات العسكرية بهدف تهدئة القلق الغربي والاقليمي وعدم الاكتراث بمحنة الشعب العراقي وتطبيق القرارات الدولية الهادفة لانقاذه». هل بدأ هؤلاء المعارضون يفهمون ان التلاقي بين مصلحتهم السياسية ومصالح الغرب كان أمرا عابرا لا غد له؟

☆ استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس

العنصر الرابع: مفاده ان «الشرق الأوسط» قد عاد الى حدوده السابقة بانضمام الجمهوريات الاسلامية، السوفييتية سابقا اليه بعد طول فراق. وبرنارد لويس مصيب هنا أيضا. ذاك ان انهيار الامبراطورية السوفييتية قد عدّل حدود غير منطقة من العالم. فلا أوروبا بقيت أوروبا وقد انفتح حدها الشرقي، ولا منطقتنا بقيت على حالها وقد انهار حاجزها الشمالي، وهذه ايضا حال شبه القارة الهندية.

لقد قبلنا جميعا بهذا، ولكن ما هي ترجمته السياسية؟ الواقع ان تفكك العرب، الذي لحظناه في العنصر الأول، يزداد خطورة مع تضاؤل وزنهم في جماعة شرق أوسطية، يغلب عليها العنصران التركي والفارسي. قد يقال: ولكن الاسلام يجمعها، ونرد: نعم في المبدأ ولكن الواقع مختلف: فالرساميل الاسرائيلية قد دخلت الجمهوريات الاسلامية السوفييتية سابقا من الباب الواسع، ولا يمر اسبوع واحد من دون ان يزور «اسرائيل» زعيم او مسؤول من احدى هذه الجمهوريات، ناهيك طبعا عن تغلغل النفوذ الايراني في بعضها (لاسيما في طاجكستان) والتركي في معظمها. وفي الحساب الواقعي، فان توسع رقعة «الشرق الأوسط» لم يكن حتى الساعة مفيدا للعرب، بل أضر بمصالحهم كعنصر وكموقع سياسي، خصوصا وان تحالفهم السابق مع قلب الامبراطورية (اي مع الروس) قد اصبح في خبر كان.

العنصر الخامس في الهندسة الجديدة هو موقعنا من السياسة العالمية، ومقولة لويس هنا مفادها امران: الأول ان الولايات المتحدة هي القوة الخارجية المسيطرة في منطقتنا من العالم من دون منازع. والثاني هي ان الولايات المتحدة غير راغبة (ولو انها قادرة) على التدخل الدائم والعميق في شؤون هذه المنطقة، بمعنى ان الكابح الحقيقي الوحيد للقوة الامبريالية الاميركية هي عدم اهتمام الرأي العام الأميركي بلعب دور امبريالي في الشرق الأوسط.

ليس التوافق مع لويس في مقولته هذه ممكنا، أو انه في الأقل ليس كاملا وذلك لاسباب عديدة:

- فاحادية القطب الاميركي أمر نسبي، وربما هو عابر. فالنظام الدولي لم يستقر يوما على قطب واحد، وبينما لا يختلف اثنان حول انهيار القطب السوفييتي فان اقطابا اخرى هي قيد النشوء أو التقوية في آسيا وأوروبا، وهي ايضا مهتمة بالشرق الأوسط، وهي جغرافيا أقرب اليه، وهي تعتمد اكثر من اميركا على نفطه، ولها احيانا علاقات تاريخية اكثر متانة بشعوبه، ولها فيه سوابق تاريخية ليست لاميركا.

- وتحول الرأي العام الاميركي الى كابح للتدخل امر يثير النقاش ايضا. فبعد تردد واضح في الكونغرس، استطاع بوش تأليب الرأي العام الاميركي الى جانب تدخله في الخليج من دون صعوبة تذكر. بل كانت حرب الخليج هي السبب الأوحد لارتفاع نسبة شعبيته في أميركا. أضف الى ذلك ان مختلف استطلاعات الرأي العام في أميركا لا تشير البتة إلى نمو في الروح الانعزالية بل الى ثبات التيار الاممي، بل التدخلي، خصوصا عندما يتعلق الأمر بمنطقة منتجة للنفط، فيها تيار اسلامي صاعد، وفيها تقع دولة «اسرائيل».

- ثم ان اعادة هيكلة ميزانية الدفاع الاميركية، تشير بوضوح الى تحول نحو الاكثار من القوات القابلة للانتقال السريع، والى توظيف المليارات في وسائل نقلها بدلا من التركيز على أسلحة الردع النووي.

- ثم ان هناك قرارا أميركيا واضحا بمنع قيام أي قطب اقليمي عربي فاعل خلال السنوات المقبلة والسعي المبكر للجم نموه أو لتدمير قدراته ان هو قام.

لذلك، ولأسباب اخرى، يصعب القبول بهذه المقولة. بل يمكن القول أيضا ان الامبراطوريات العالمية عبر التاريخ، والأميركية احداها، لم تتطور، ولم يتسع مداها الاستراتيجي بقرار مركزي فحسب. بل هي نمت وتوسعت أيضا بفعل مطالبة بعض الأطراف الخارجية بحمايتها، وبمظلتها الاستراتيجية. ونحن نشهد اليوم في مختلف مناطق العالم الثالث تزايدا لعدد المطالبين بالحماية، بل بالوصاية الغربية عليهم خوفا من تجبر جار أو اعتداء قريب.

وخلاصة الأمر ان منطقتنا من العالم هي بالفعل في مرحلة تعديل عميق في هندستها. وكما هي الحال في المراحل الانتقالية، فان استشراف المعالم النهائية للخريطة الجديدة امر صعب، ليس لدينا الا بعض عناصره، ولا نحن ناجون، ولا حتى الاميركان، من حدوث امور مفاجئة لا توقعناها، ولا هم عملوا لحصولها.

لكن الأمر الأساس هو في هزال العنصر العربي في هذه المرحلة الانتقالية والمتمثل بتفكك الاواصر بين الحكومات، وبقبولنا بغير الأمم المتحدة مجالا لبحث مسألة نزاعنا مع «اسرائيل»، وبسقوط اسلحتنا بسبب استعمالها في غير مكانها، أو بسبب القرار الدولي بتدميرها، أو بسبب تحييد النفط العملي.

لذا فان اعادة الهندسة سائرة بنشاط. وهناك اطراف خارجية منهمكة فيها، واطراف اقليمية (اهمها اسرائيل وايران وتركيا) منخرطة الى هذا الحد ام ذاك أيضا في صياغتها. اما العرب، فهم الى ضعفهم، مقبلون على التعامل مع مساحة استراتيجية أوسع وأصعب، بسبب توسع «الشرق الأوسط» نحو الشرق الشمالي الآسيوي حيث امكانات التأثير العربي في الواقع متواضعة.

اعادة الهندسة جارية، ولا شيء فعلا يشير الى ان العرب منخرطون بفعالية في العملية. وكأنهم، في الراهن من الزمن، ما عادوا مهندسين للخريطة، وانما اشارات متفرقة عليها. ■■